

من أجل إعادة التقييم في مجال التقنيات الإسقاطية تساؤلات أولية في هذا الإطار.

م.أ. أيت سيدهم *

ملخص

نحاول هنا رصد المعرفة الحالية في مجال التقنيات الإسقاطية. هدفنا هو تحديد ما يمكن إعتباره معرفة قائمة على أسس منهجية مقبولة تلزم الباحث و ما لا يزال على مستوى الفرضيات؟ معطيات لا تلزم الباحث نظرا لكونها لم توضع على المحك لتناقش بصورة منظمة.

تبين المناقشة أن الكثير من المعطيات المتعامل بها في هذا الحقل و التي لم يعد المختصون كثير من يسائلونها - مسلمين بها بدون نقاش - ، هذه المعطيات لا تستند على أبحاث قائمة على منهجية تفرض العمل بها بكل طمأنينة. إن الكثير من هذه المعطيات لا تتعدى الفرضية المعززة نظريا والتي بينت التجربة الميدانية أنها تستحق العناية و الإختبار.

الكلمات الأساسية: التقنيات الإسقاطية - إختبار موري -
الرور شاخ - إعادة التقييم.

* مكلف بالدراسات بمعهد علم النفس و علوم التربية جامعة الجزائر.

قد تبدو التساؤلات التي سأحاول طرحها هنا لا علاقة بينها... كما أن الإجابة عليها تبدو سهلة وبسيطة. رغم هذا وذاك سأحاول أن أبين أن التطرق لها يسمح بتبرير فكرة مغزاها أننا اليوم في أمس الحاجة إلى تقييم شامل للمعرفة في هذا المجال؛ مجال التقنيات الإسقاطية.

تتعلق هذه التساؤلات بجوانب مختلفة في ميدان التقنيات الإسقاطية وسوف أكتفي، في هذا المقال، بتناول تلك التي تتعلق بالمحاور التالية:

- 1- حول التسمية.
- 2- لماذا الإعتناء بالرور شاخ و اختبار موري أكثر من غيرهما من التقنيات الإسقاطية.
- 3- حول حساسية الرور شاخ لرصد البنية.
- 4- المعرفة الحديثة في الإقتصاد السيكوسوماتي تدعوا إلى الحذر في رصد البنيات النفسية بواسطة التقنيات الإسقاطية.
- 5- إشكالية إدخال بعض مفاهيم الإقتصاد السيكوسوماتي في شبكة شنتوب لتحليل بروتوكولات إختبار موري.

1- حول التسمية ...

إن المختصين النفسانيين المهتمين بالتقنيات الإسقاطية يعرفون أن هذه التسمية أثارت جدلا حادا امتد على قرابة نصف قرن (1). هناك من أجزم أن هذه التسمية أطلقت تعسفا، هناك من قال أن فرانك (2) قد وفق إلى حد كبير حينما أطلق هذه التسمية على تقنيات لم تكن من وضعه. نجد أيضا أن هذا الفوج من البحتة الذين وافقوا فرانك في التسمية اختلفوا فيما بينهم حول تعريف مفهوم الإسقاط الذي يجب الرجوع إليه. فهناك من قال أن معنى الإسقاط هنا لا علاقة له بالمعنى الذي يعطى له في مجال التحليل النفسي، بينما أكد البعض الآخر أنه لا مفر من المعنى التحليلي لهذا المفهوم في مجال التقنيات الإسقاطية.

أكثر من هذا ...

إن البحتة الذين أكدوا على أنه لا مفر من المعنى التحليلي لهذا المفهوم في مجال التقنيات الإسقاطية قد اختلفوا فيما إذا كان يجب أن يحد في معناه الدفاعي أو يجب أن يؤخذ في معناه الشامل كما وضعه فرويد سنة 1913 (3).

1- حول هذه النقطة أنظر: SAMI ALI. - De la projection, Paris, Payot. 1970.

2- Frank (L.K)- Perspective Methods for the study of personnality, J. -2 Psychol. 1939, P.8.

3- Freud (S). (1913) - Totem et tabou, Paris, Gallimard, 1948.

إذا استثنينا دراسة بيلاك التجريبية لمصطلح الإسقاط، محاولة منه لحسم الجدال في هذا المجال، فإن مختلف التناولات التي حضي بها هذا الموضوع عبارة عن مناقشات واجتهادات نظرية أهملت - أو اجتنبت نتيجة صعوبات لم يتمكن من تجاوزها - البحث الميداني المنظم.

لعل بيلاك أقرب في هذا التناول من غيره ممن ناقش المشكل، لكنه وقع في خطأ فادح - خطأ جدير بالمبتدئين ... انطلق بيلاك في دراسته من التعريف الدفاعي المحظ لمفهوم الإسقاط في التحليل النفسي. عندما برهن أن الإنسان حينما يتعرض لاختبار موري (1) لا "يسقط" على اتناجه عواطفه السلبية فقط بل يتعدى الأمر إلى الانشغالات و العواطف الإيجابية أجزم أن السياق النفسي المستعمل في إنتاج البروتوكول لا يمكن أن نحصره في الإسقاط.

إن المتبع لبيلاك في هذه الدراسات ينتبه لا محالة إلى أنه حينما يتكلم عن الإسقاط بالمعنى التحليلي لهذا المفهوم لا يرجع إلا إلى معناه الدفاعي مهما كونه فرويد قد خص هذا المفهوم بمعنى ثان أعم وأشمل.

كل هذه المناقشة لا تهمنا لو اعطيت حالياً إجابات مقنعة مكنت من حسم الإشكالية إلا أن الأمر ليس كذلك؛ رغم أن أكثرية

1 - سأستعمل هنا شبه الجملة "إختبار موري" حينما أريد التكلم عن إختبار T.A.T. ذلك أنني

أجد أن ترجمته بإختبار تفهم الموضوع غير موفقة إطلاقاً.

المختصين ينساقون اليوم و يسلمون بوجهة رأي رابابور الذي حاول صياغة ما يسمى بالفريضة الإسقاطية.

تنص هذه الفرضية على أن التعابير السلوكية للإنسان، من أبسطها إلى تلك التي تكتسب أكبر دلالة بالنسبة إليه، تكشف شخصيته، أي تكشف التنظيم الفردي الذي يدير هذه السلوكات. لتجاوز هذه التناقضات و حسم الموقف يبدو لنا أن الإهتمام يجب أن يركز على كيفية بناء و ارضان البروتوكولات في هذه الاختيارات؛ ذلك أن فهم العمليات النفسية التي تتدخل في بنائها ضرورية للإجابة على التساؤل الذي يشغلنا هنا.

قد تبدو هذه الملاحظة في منتهى السذاجة و هي فعلا كذلك. نذكرها هنا لأن المهتمين بالتقنيات الإسقاطية - مهما بدى هذا الأمر غريبا - لم يولوا لها الأهمية التي تستحقها. إننا اليوم، وبعد أكثر من نصف قرن من استعمل التقنيات الإسقاطية، لا نعرف الكثير عن السياقات والعمليات النفسية التي تتدخل في ارضان إجابات الرورشاخ (1) و لا تلك التي تنسج القمص في الاختبارات الإسقاطية الموضوعية "Techniques projectives thématiques". إن المعطيات

1- أنظر المقال الذي نشرناه سابقا في هذا المجال:

AIT SIDHOUM (M.A) - Le processus d'élaboration de la réponse au Rorschach, Psychologie, N°3, 1992, P. 113-131.

المتواجدة عندنا اليوم تتمثل في استنتاجات نظرية تم التوصل إليها من استيراد معارف ضبطت في مجالات أخرى و تم تطبيقها على التقنيات الإسقاطية.

نجد رورشاخ نفسه حاول تطبيق نظرية أستاذه بلولي في الإدراك لفهم سياق الإجابة في إختبار موري (1).

نجد روبير هلت قد حاول تطبيق آخر ما أتت به سيكولوجية الأنا على بناء القصص في إختبار موري (2).

حاولت شانتوب استقراء سياق بناء القصة في اختبار موري على ضوء نظرية فرويد في تفسير الأحلام. (3).

لا نريد هنا انتقاد هذه المساهمات التي بدونها لما عرفت التقنيات الإسقاطية رواجها الحالي. نريد أن نقول أنه قد حان الوقت للذهاب أبعد من ذلك. نريد أن نذكر خاصة بالمقام الحقيقي لهذه المعطيات من الناحية العلمية.

1- انظر تناولنا النقدي لأعمال فيكا شنتوب و كذا تناولنا لسياق بناء القصة في اختبار موري.

AIT SIDHOUM (M.A)- A propos du T.A.T. Mise en place de la conception de V. Shentoub, Psychologie, N°4, 1994, P. 167-216.

Les techniques projectives thématiques: Réflexions critiques et propositions méthodologiques à partir de la clinique en Algérie, Revue Algérienne de Psychologie et des sciences de l'éducation, N°6, 1994.

Rorschach (H)- Le psychodiagnostic, Paris, PUF, 1976.

2- Holt (R) - The nature of T.A.T. stories as a cognitive products, in Kagan et Lesser: contemporary issues in Apperceptive methods, 1961, Charles Thomas publ.

3- Freud (S) - L'interprétation des rêves, Paris, PUF, 1967.

إن مقام المعرفة الحالية حول سياق بناء الإجابة في الرورشاخ وبناء القصة في اختبار موري، مقام هذه المعرفة لا يتعدى مستوى الفرضية العلمية المبررة نظرياً والمستندة على ملاحظات ميدانية متنوعة وثرية. لقد حان الوقت لاختضاعها للتجريب. نعم إن المهمة ليست هينة و لكن يستحيل تجنبها إن أردنا فعالية أكبر ودقة أحسن عند استعمال التقنيات الإسقاطية في المجال العيادي.

لقد وضحنا سابقاً (1)(2) كيف يمكن معالجة المشكل من الناحية المنهجية، كما سبق لنا و أن قدمنا أمثلة مفصلة لتحديد الجانب الإجرائي للمعالجة المنهجية التي اقترحناها. لا يسعنا هنا اليوم إلا الإشارة إلى أن النتائج المحصل عيها إلى حد الآن تدعونا إلى القول أن تسمية التقنيات الإسقاطية إن لم تكن خطأ فهي على الأقل تحد من فهمنا لهذه التقنيات. يمكن الجزم أن آليات عديدة و معقدة - منها النقل، التكثيف، الترميز والمراجعة الثانوية - تتدخل في بناء أجوبة الرورشاخ و قصص اختبار موري. فالإسقاط ليس إلا عملية من بين العمليات المنظمة للإنتاج الإسقاطي.

1-ايت سيدهم (أ.م). سبق ذكره، سنة 1992.

2-ايت سيدهم (أ.م). سبق ذكره، سنة 1995.

يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا ... إن مختلف الآليات الأساسية في تنظيم الشخصية تتدخل في بناء بروتوكولات هذه التقنيات. فهي تستحق فعلا الوصف الذي تحظى به حينما نقول أنها تهدف إلى إعطائنا نظرة شمولية (Holistique) حول الشخصية؛ و عليه يمكن أن نعتبر أن صيغة "اختبارات الشخصية" هي أحسن تسمية لها. إن إحدى مزايا هذه التسمية تتمثل في أنها تجعلنا نتذكر دوماً - حين استعمالها - أن آليات معقدة و متشابكة تتدخل في إنتاج البروتوكولات و لا يمكن حصر هذه الآليات في عملية الإسقاط مهما كان المعنى المعطى لهذا المفهوم.

يمكن الإشارة في النهاية إلى أن وصف هذه التقنيات بالإسقاطية قد لعب دورا كبيرا في تغليب المبتدئين في تفهم هذه التقنيات وهذا يدفعهم إلى البحث عما اسقطه المحوص من مشاعر عوضا من محالة استنباط الآليات المتنوعة المستعملة في بناء البروتوكولات.

2- لماذا العناية بالرورشاخ و اختبار موري أكثر من غيرهما.

إن هذا السؤال و الكيفية التي سأعرض له هنا يهتمان المختصين النفسانيين العاملين في الجزائر أكثر من غيرهم.

طرح علينا هذا السؤال مرارا و أعيد طرحه علينا بصفة أدق

منذ بضعة أيام من طرف طالبين: لماذا تولون الرورشاخ و اختبار موري كل العناية و تتجاهلون اختبار الأشخاص الثلاث لمدين باكيس توما و كذا الإختبارات الإسقاطية الأخرى ؟ إن المغزى المباشر لهذا السؤال يتمثل في كون باكيس توما سبق لها و أن جزمت أنه ليس هناك أية تقنية إسقاطية (ذات الرسومات الإنسانية) صالحة الإستعمال في الجزائر. (1) و عليه فما دام اختبار الأشخاص الثلاثة قد وضع خصيصا في الجزائر من طرف باكيس توما لسد هذا الفراغ فيتحتّم علينا العناية به قبل غيره من التقنيات الإسقاطية.

لقد سبق لنا و أن ناقشنا هذا الحكم الذي جزمت به باكيس توما دون أي تحفظ (2). لقد أشارت مثلا إلى أنها لم تنشر أي عمل علمي يساند حكمها.

أكثر من هذا: يمكننا الجزم أنه ليس هناك أي عمل علمي يذكر نشر إلى حد الآن يمكن أن يعزز ما ذهبت إليه باكيس توما.

لقد سبق و أن قلنا أن مجرد طرح أشكالية استعمال التقنيات الإسقاطية على هذا المنوال يبين أن صاحب هذا الطرح بعيدا كل البعد عن تتبع تاريخ و منطق البحث في هذا المجال، خاصة بعد أن تبين

1- BACKES THOMAS (M). Le test des trois personnages, Neuchatel, Delachaux et Niestlé, 1969.

2- AIT SIDHOUM (M.A)- Les techniques projectives thématiques, Problèmes actuels et perspectives d'avenir, Recherche, 1993, N°1.

من أعمال الإسقاطيين - الأمريكيان من مدرسة سيكولوجية الأنا - أن تحليل المحتويات في مجال التقنيات الإسقاطية لا يجدي نفعا. بعد هذه الملاحظة حول الحكم الذي انطلقت منه باكيس توما يمكننا الرجوع إلى السؤال في صياغته المبدئية.

توضح مناقشتنا لإشكالية التسمية التي تجعل من عملية الإسقاط منظم هذه التقنيات أننا نفتقر كثيرا إلى البحث الأساسي في هذا المجال، الأمر الذي جعل المختصين النفسانيين يستعملون تسمية خاطئة لتقنيات يعتمدون عليها يوميا قرابة نصف قرن.

لقد أكدنا على ضرورة المعرفة الدقيقة لسياق البروتوكولات للفصل في صفة الإسقاط التي تنعت بها هذه التقنيات. يمكن القول هنا أن نفس هذه المعرفة ضرورية لبناء شبكات التحليل اللازمة لاستقراء العمليات النفسية التي يوظفها المفحوصون لإنتاج مثل هذه البروتوكولات. يمكن أن نضيف أن عدم دقة هذه المعرفة بالنسبة للروشاخ و اختبار موري هو الذي يفسر حدود الخصائص الإجرائية لأساليب التحليل المتواجدة اليوم.

لنتساءل الآن: إذا كان هذا هو الوضع بالنسبة للتقنيتين الأكثر استعمالا في هذا المجال فما هو الوضع بالنسبة لاختبار الأشخاص الثلاث ؟

إن نظرة خاطفة فيما كتب حول هذا الاختبار من جهة و ما كتب حول اختباري رورشاخ و موري يجعل حتى المبتدئ يتنبه إلى أن مستوى التنظير في اختبار الأشخاص الثلاثة بعيدا كل البعد عن مستوى التنظير في الاختباريين الآخرين.

لعل احسن دليل على هذا كون باكيس توما و مستعملي اختبار الأشخاص الثلاثة يعتمدون على الإطار التحليلي كقاعدة نظرية في أبحاثهم من جهة، و من جهة أخرى نلاحظ عندهم الركون المستمر إلى التحاليل الإحصائية لاستقراء نتائج أعمالهم متناسين في ذلك أن التناول التحليلي لا يتوافق مع هذا التناول المنهجي.

إن الاعتبارات التي تجعلنا نفضل استعمال الرورشاخ واختبار موري على اختبار الأشخاص الثلاثة عديدة، يمكن تلخيصها في أربعة محاور هي:

١- من الناحية المنهجية: إن بناء تقنية جديدة من نوع جيد يستلزم المعرفة الدقيقة للسياقات النفسية الأساسية التي نقصد رصدها بهذه التقنيات حتى نعرف أية تعديلات تؤخذ بعين الاعتبار في بناء التقنية الجديدة لكي نتمكن، بفضل هذه التعديلات، الحصول على معطيات قد تكون التقنيات الموجودة غير حساسة لها.

يبدو لنا أن وضعية المعرفة في مجال التقنيات الإسقاطية لا يسمح

بذلك. فالأفئع أن نوظف الجهود أولا في فهم السياقات النفسية المستثمرة في هذا النوع من التقنيات قبل أن نحاطر في بناء تقنيات مماثلة ونحن: نجهل هذه السياقات.

ب- من الناحية النظرية: إن اختباري رورشاخ و موري لهما قاعدة اسلم و اتمن وإن كانت هناك عوامل عديدة نجهل دورها في هذه الاختبارات.

ج- من الناحية العلمية: إن أساليب التحليل الموجودة حاليا بالنسبة للورشاخ واختبار موري تساعد أكثر لفهم السياقات النفسية و أن اختبار الأشخاص الثلاثة من جهة لا يستطيع منافستها في ذلك و من جهة أخرى لا يساعد في فهم أي شيء إضافي.

د- بالنسبة لعدم صلاحية استعمال اختبار موري في البيئة الإجتماعية الجزائرية: إننا ننتظر أن تقدم باكيس توما الحجج المعززة لحكمها. فالأبحاث الموجودة حاليا (1) تناقض في نتائجها ما ذهبت إليه باكيس توما، و تشير أن باكيس توما لا تصدق في قولها إلا إذا اعتمدنا في طريقة تحليلنا للنتائج على دراسة محتويات القصص أي إذا قبلنا النكوص حيث كان مستوى المعرفة قبل أربعين سنة.

1- نجد حوصلة على هذه الأبحاث في مقال أشرنا اليه سابقا.

تم الفحص الأولي باستعمال مقابلة عيادية و اختباري رورشاخ و موري.

أظهر تحليل نتائج هذه التقنيات توافق كبير فيما ذهبت إليه هذه الأخيرة. فالسير النفسي للمفحوصة تغلب عليه الآليات الفوبية والقهرية في تناسق كبير.

تعهدت كفالة هذه المفحوصة بعد ذلك لمدة سنتين بمعدل حصّة واحدة في الأسبوع.

لقد مكنتني هذه الملاحظة الطويلة المدى حصّة بعد حصّة من تأكيد و توضيح التصور الأولي الذي فرضه علي الفحص الأولي. بعد هاتين السنتين من المتابعة تحسنت أوضاع الأنسة ك كثيرا. فانتهت دراستها الجامعية و بدأت تعمل (نصف المواضبة) كمساعدة للترجمة في مؤسسة خاصة.

حملني هذا التحسن الواضح على اغتنام فرصة الدخول الجامعي الذي يتناسب مع فتح المصلحة بعد العطلة السنوية للقيام بفحص جديد. قصدت بذلك الحصول على معلومات إضافية لتوجيه و ارشاد عملي مع المفحوصة حيث كنت بدأت التفكير في إنهاء الكفالة.

فكرت كثيرا في الوسائل التي يمكنني أن أستعملها في هذا الفحص الجديد، فانتهيت إلى استعمال الرورشاخ و اختبار موري من

جديد قصد المقارنة مع نتائج الفحص الأولي.

كانت الصدمة ...

انتجت المفحوصة بروتوكولا للرورشاخ غريبا عن السير
النفسي الذي عهدتها عليه.

بماذا يتعلق الأمر ؟ يمكن تلخيص هذا البروتوكول فيما يلي:

كل أجوبة المفحوصة -إجابة واحدة على كل لوحة - كانت
اجابات كلية ذات محتوى واحد. يتمثل هذا المحتوى في الأعضاء
الجنسية للمرأة. اعتمدت المفحوصة، أثناء التحقيق، لتبرير هذه الأجوبة
أساسا على الشكل في اللوحات الأحادية اللون. اضافت إلى الشكل،
في اللوحات المتبقية، عناية خاصة باللون؛ كان اللون هنا يظهر كمبرر
إضافي بعد الشكل. لقد كانت الألوان في اللوحات رقم VIII، XI، و X
تحملها على التفكير في التعفن، أما في اللوحتين II و III فيذكرها في
فقدان البكارة.

يدعو تحليل هذا البروتوكول مباشرة إلى التفكير في الذهان وإلى
تدهور علاقات المفحوصة مع العالم الخارجي.

تساؤلات عديدة تفرضا هذه النتيجة:

إلى أي حد احتفظ هنا الرورشاخ بحساسيته للخطوط البنيوية
للشخصية أم أن هناك خطأ في التشخيص الأولي.

سأختصر الإجابة على هذا السؤال بالاعتماد على نوعين من المعطيات:

أ- بعد هذا الفحص واصلت كفالة الأنسة ك. تبين من الححص التي تلت الفحص مباشرة أن المفحوصة قد عاشت تجربة فريدة في حياتها أثناء العطلة، ثلاثة أسابيع تقريبا قبل الدخول المدرسي. تتمثل هذه التجربة في علاقات جنسية سطحية مع شخص عرفته في عملها وخافت كثيرا على بكارتها أثناء هذه العلاقات التي تصفها بالمرضية على كل المستويات الأخرى.

إن خوفها هذا، في رأيها، لا مبرر له في التجربة التي عاشتها مع زميلها؛ ولقد حملتها حدة هذا القلق إلى المرور بمرحلة اكتئابية ربطتها بنتيجة العمل التي توصلت إليها كفالت لها: ما الداعي إلى مواصلة العمل إذا كانت أية تجربة هامة تستطيع أن «تخلط الأوراق» بعدما صرفت الجهد الكثير لتوزيعها ؟

لقد أكسبني كفالة هذه المفحوصة مؤشرا أثبت مع الوقت أهميته الكبيرة في فهم نشاطها النفسي: لقد كانت فكرة وضع حد للكفالة تراودها كلما لاحت في الأفق عندها طبقة هوائية شديدة الفعالية يصعب عليها مواجهتها. و عليه حينما بدأت الفكرة تشغلها من جديد توضحت الأمور في ذهني على شكل فرضية بينت فيما بعد

فعاليتها في فهم جانب كبير من الإنشغالات التي سبقت و تلت الفحص: لقد ربطت الإنشغالات المتعلقة بوضع حد للكفالة و نوعية الإنتاج في إختبار الرورشاخ بنفس العامل؛ طبقة هوائية شديدة الفعالية تلوح في الأفق.

يرشدنا بروتوكول الرورشاخ بوضوح إلى طبيعة النشاط الهوامي المعني بالأمر في هذه الحالة. و على أهمية هذه الطبقة يكفي هنا أن أقول أنها لازمت الححص التي تلت الفحص لمدة طويلة: أكثر من سبعة أشهر على وجه التحديد.

إن التجربة الجنسية التي عاشتها المفحوصة خلال العطلة لم تكن إلا عامل معجل للظهور "الطزج" لهذه الإنشغالات الهوائية. وقد تكون هذه الإنشغالات ونشاطها هو الذي سمح للمفحوصة أن تعيش أول تجربة جنسية لها.

تبين من بقية الكفالة التي دامت قرابة السنتين بعد الفحص الثاني أن تنظيمها النفسي بعيدا كل البعد عن الذهان و أنها فعلا تستمد هيكلتها العامة من النمط العصابي.

ب - إن أحسن طريقة لمناقشة مدى صحة فرضية تشخيصية يتمثل، أثناء المتابعة الطويلة المدى، في درجة توافق الظواهر النفسية الصادرة عن العمل مع الفرضيات الجزئية التي تتفرع عنها لتقود

العمل المتواصل للمختص مع العميل. فإذا كان هناك تباعدا كبيرا بين الفرضية الأساسية و البنية المرجعية للمريض استحال مواصلة العمل بها طويلا، و في أي حال فإن الكفالة لن تصل إلى نتيجة تذكر في تحسين السير النفسي للمريض ما دامت هذه الفرضية هي التي توجه العمل ... إن لم ينقطع المبحور نهائيا عن المصلحة.

لقد أشرت في بداية الحديث عن الأنسة ك إلى النتائج التي انتهت إليها الكفالة بعد سنتين من العمل. أظيف هنا أن الأنسة ك، حينما تقرر إنهاء كفالتها، قد وظفت نهائيا في عملها بمواضبة كاملة و تحسنت علاقاتها مع وسطها بشكل ملحوظ... لم تفقد خجلها تماما و لكنه لم يعد عائقا مستمرا أمامها حيث أصبحت لا تمتنع مسبقا عن الوضعيات التي تتطلب مجابهة الآخرين بل تعول على التحضير الجيد لمثل هذه الوضعيات و لقد اكسبتها تجاربها الجديدة ثقة في النفس من المنتظر أن تتقوى تدريجيا.

تغيرت الأنسة ك كثيرا في هندامها و آخر خبر عرفته عنها هي أنها سجلت للمشاركة في مسابقة الماجستير.

4- المعرفة الحديثة في الاقتصاد السيكوسوماتي:

تدعوا هذه المعرفة إلى الحذر في رصد البنيات النفسية الأساسية بواسطة التقنيات الإسقاطية.

إن الأطر النظرية الكلاسيكية في مجال علم النفس تنطلق من مسلمة أساسية مغزاها انتظام سير العمل النفسي للإنسان. فهذا النشاط لا يعرف الإنقطاع و يتبع دوما نمطا واحدا و أن التغيرات التي تظهر عليه يحددها هذا النمط و ترجع أساسا إلى اختلافات كمية في توزيع الطاقة و تسييرها.

لا نقصد هنا من فكرة نفس النمط أن ينتمي أي شخص في مجمل نشاطه النفسي إلى نموذج نزوغرافي واحد مثل النموذج الفوبي أو القهري أو الذهاني. نقصد أن نمطه نجد فيه دوما آليات من نماذج مختلفة و لكن الآليات المتواجدة عنده و إن اختلفت أصلا في نوعيتها فهي تتناسق مع بعضها عند هذا الشخص و تنتظم لتكون بنيته الخاصة و الفريدة من نوعها.

حينما نعمل داخل الإطار الذي تحدده هذه المسلمة فإنه من الواضح أن البنية الفردية-و نظرا لكونها تترك دائما بصمتها على كل ما تنتجه - يمكن أن تحدد من دراسة أي إنتاج تدخل في تنظيمه الخطوط البنيوية للشخصية. هذا الإطار يستبعد نظريا

وجود وضعيات يسير فيها الفرد بما لا يسمح به نمط سيره المعتاد.

إن الأمر يختلف تماما حينما يجعل المختص النفسي من الإقتصاد السيكوسوماتي لبيار مارتي خلفيته النظرية.

حينما نخص النظر في الإقتصاد السيكوسوماتي لبيار مارتي وننتبع ما يترتب عن مفهوم عدم الانتظام و الديومة "irregularité" للنشاط النفسي عنده في كل ابعاده فإن هذا المفهوم قد يأخذ من الأهمية في الإقتصاد السيكوسوماتي نفس الأهمية التي يأخذها مفهوم اللاشعور في الإقتصاد النفسي عند فرويد. حيث أن الوحدة السيكوسوماتية للفرد يستحيل تصورهما بدون هذا المفهوم. ثم إن هذه الوحدة السيكوسوماتية تجعل من ظاهرة عدم الانتظام وإمكانية إنقطاع النشاط النفسي نسبيا ظاهرة مرتقبة و غير مستبعدة نظريا.

مهما كان نوع النشاط النفسي المسيطر عادة عند الفرد فإن هذا النشاط يعرف مراحل من الفراغ و الإنقطاع. تختلف هذه المراحل من الفراغ من حيث الأهمية و من حيث طول مدتها. كما أن هناك بعض التنظيمات النفسية التي هي مرشحة لتتردد عليها مثل هذه المراحل أكثر من الأخرى.

وصف بيار مارتي الوضعية التي يكون فيها الفرد حين يمر بمثل هذه المراحل و اطلق عليها تسمية "الإكتئاب الأساسي"...

تساؤلنا هنا بالنسبة للإشكالية التي تطرحها حساسية التقنيات الإسقاطية لرصد البنيات النفسية يمكن صياغته كما يلي:

حين يمر شخص معين بمرحلة من الإكتئاب الأساسي، ولنفرض أننا فحصناه أثناء ذلك بالرورشاخ و اختبار موري، فهل تستطيع هذه التقنيات رصد نمط من العمل النفسي فقد وقتيا عند المفحوص أم أن التقنيات الإسقاطية سترصد لنا الحالة التي يمر بها هذا الفرد و تعطينا صورة عما سماه مارتي بالإكتئاب الأساسي؟

إذا اعتبرنا المعطيات المتداولة اليوم في مجال الإقتصاد السيكوسوماتي فإنه من الواضح أن البروتوكول الذي سينتج في هذه المرحلة سوف يرصن بالخصائص النفسية المنظمة لهذا النوع من السير النفسي تماما مثلما يرصن هذا النوع من السير النفسي خصائص الحياة اليومية لهذا الشخص.

إن الإكتئاب الأساسي و ما يصاحبه من حياة عملية "vie opératoire" لا يأخذ نفس الأهمية و لا يكون بنفس الشدة عند جميع الأشخاص الذين يشخص عندهم، و عليه يمكن القول أن حساسية الرورشاخ و التقنيات الإسقاطية الأخرى لرصد البنية النفسية للشخص

قد تتناقض كلما كان الإكتئاب الأساسي أشد و كلما كانت الحياة العملية التي تصاحبه تزداد في الهيمنة على حياته. (1)

5- اشكالية ادخال بعض المعطيات من الإقتصاد السيكوسوماتي حينما يكون الإطار العام لاستعمال التقنيات الإسقاطية مستمدا من التحليل النفسي:

إن مستعملي شبكة فيكا شنتوب في تحليل بروتوكولات اختبار موري يعرفون كيف أدخلت، في هذه الشبكة، البنود الرامية إلى حصر تمظهر الحياة العملية في بروتوكولات هذا الاختبار.

لقد حدث ذلك تدريجيا بعد أن بدأ بعض المنظرين في مجال التقنيات الإسقاطية يهتمون بأفكار بيار مارتي و الإمام بالإقتصاد السيكوسوماتي. فأجبرتهم هذه الحساسية النظرية الجديدة على الإنتباه إلى تمظهر التفكير العملي في البروتوكولات. فادخلوا في الشبكة التي كانوا يستعملونها التعديلات الضرورية حتى تمكنهم من عزل مؤشرات التفكير العملي كما تم عزل مؤشرات الأنماط الأخرى من السير النفسي.

1- بالنسبة لكل هذا الجانب المتعلق بالإقتصاد السيكوسوماتي انظر مراجع بيار مارتي المعطاة في قائمة المراجع.

لو رجعنا قليلا إلى الوراء لتتبع الجهد الذي بذل من طرف هؤلاء البعثة (1) - نقصد هنا أساسا فيكا شنتوب و روزين دوبري - لوضع الخطوط العريضة لمساهمتهما من أجل رص قواعد جديدة في استعمال اختبار موري لانتبهنا إلى أمر بالغ الأهمية. كانت بداية هذا العمل قد اخذت منطلقها في منتصف الخمسينات من موقف يتمثل في رفض اللجوء إلى تحليل محتوى القصص كإختيار منهجي لتحليل بروتوكولات اختبار موري. استندت شنتوب في هذا الاختيار على أعمال الإسقاطيين الأمريكيين التابعين لمدرسة سيكولوجية الأنا.

حينما انطلقت شنتوب في هذا العمل كانت تصرح بوضوح أنها تعتمد على معطيات نظرية مستمدة من التحليل النفسي و من الطب العقلي الكلاسيكي، أي أن هذه المعطيات مستعارة من إطارين نظريين مختلفين. استمرت في هذا الإختيار إلى بداية الستينات حيث أدت بها الصعوبات المنهجية المترتبة عن هذه الإزدواجية في المعطيات النظرية إلى التخلي عن معطيات الطب العقلي في خلفيتها النظرية.

1- أنظر: AIT SIDHOUM (M.A) op. cit., 1994.

يمكن القول - و فيكا شنتوب متفقة مع هذا القول - (1) أن الأبعاد الأساسية في عملها حول اختبار موري لم تتبين لها إلا بعد التخلي عن الإزدواجية النظرية السابقة الذكر.

أكثر من هذا، فإن ماسمته بسياق T.A.T. لم يتضح لها إلا عندما أخذت كمرجع نظري مجمل النظرية التحليلية في أبعادها الثلاثة وليس من باب الصدفة إن تزامن ذلك مع نشرها لأول مقال بالإشتراك مع روزين ديبري التي كانت آنذاك محللة نفسانية.

بعد هذه الفترة المتميزة بتناسق نظري كبير و الذي انتج ما يمكن تسميته اليوم بمساهمة شنتوب و ديبري في مجال التقنيات الإسقاطية بدأت الأوضاع تتغير...

يتمثل هذا التغير في أن التناسق النظري السابق الذكر قد بدأ في الاختلال، حيث ادخلت بعض المصطلحات من الإقتصاد السيكوسوماتي على المرجعية النظرية التحليلية البحتة التي كانت تنظم البحث في مجال اختبار موري. فتمخض ذلك على تعديلات ادخلت على شبكة تحليل البروتوكولات بحيث فتح صنف خاص يجمع المؤشرات الدالة على تمظهر التفكير العملي.

1- SHENTOUB (V), RAUSH DE TRAUBENBERG (N). Tests de projection de la personnalité, E.M.C., 9 - 1982, 37190A10, P. 1-14.

نعم إن التناسق النظري الذي تمخض عن قرابة عشرون سنة من البحث قد فقد بعد ادخال بعض المفاهيم من الإقتصاد السيكوسوماتي على بقية المعطيات المستمدة من التحليل النفسي. سوف اكتفي هنا بالإشارة إلى أمرين جزئيين. فهذه النقطة بمفردها تتطلب أكثر من مقال...

- 1- إن صنف السلوكات في شبكة فيكا شنتوب يفقد قيمته الفارقة حينما ندخل في بناء الشبكة مفاهيم من الإقتصاد السيكوسوماتي. ذلك أن السلوكات حسب بيار مارتي قد تصاحب إرصان و تسيير الطاقة على المستوى النفسي أو تحل محل هذا الارصان. فإبقاء كل السلوكات ضمن صنف واحد مصدرا لخلط العمليات النفسية وقيمتها الوظيفية. و لا ننسى أن منطلق بناء الشبكة كلها يتمثل في جمع الشواهد الدالة على نفس النمط من العمليات النفسية في صنف واحد.
- 2- حينما نتأمل بعض البنود المكونة لاصناف شبكة فيكا شنتوب والتي يوجد حول دلالتها اجماع شبه كلي - حينما نتأمل هذه البنود تحت منظار الأقتصاد السيكوسوماتي - فإن الشك ينتابنا في صحة هذه الدلالة الصنف B2-3 مثلا يرجعنا إلى اقصوصات يتم التركيز فيها على العلاقات الشخصية و على الركون إلى استعمال أسلوب الحوار بين الأشخاص. يعتبر هذا البند من أكثر البنود وضوحا من حيث

دلالاته النفسية، كما يشكل المحور الذي تنتظم حوله البنود المنتمية إلى الصنف B و الدالة كلها على النمط الهيستيري.

إن هذا البند، إذا نظر إليه من زاوية الإقتصاد السيكوسوماتي، قد لا يدل دائما على عمليات نفسية ترصن الصراع و ترصنه في العلاقات مع الآخرين. حيث نجدها عند اشخاص منهمكين في الحياة العملية على شكل أسلوب مباشر "لاستحضار أقوال الغير أو حتى لاستحضار الأقوال و المشاعر الشخصية التي ظهرت في وقت محدد. إن الإفراط في استعمال هذا الأسلوب يوضح، في هذه الظروف، الصعوبات التي تجدها المريضة في تحسس الآخر داخليا. كما يرجعنا إلى انعدام الديمومة في نشاط نفسي يظل سطحيا سواءا على مستوى المبادلات أو على مستوى التفكير." (1)

إن المحاور الخمسة التي تعرضنا لها بإيجاز متباعدة من حيث نوعية الإشكاليات و من حيث مجالات البحث التي توجه إليها.

رغم هذا التباعد - أية علاقة بين تسمية هذه التقنيات وحساسية الرورشاخ لرصد البنيات أو بين هذه الأخيرة و شبكة شنتوب للتحليل؟- إن مناقشتنا لهذه المحاور على اختلافها تصب في

1- Marty (P), Mouvements individuels de vie et de mort, Paris, Payot, 1973, P. 210-211.

اتجاه واحد ... ذلك أن علامات استفهام عديدة تفرض نفسها علينا اليوم و هذا حول المعطيات التي كانت تبدو مراكزا للإتفاق والإجماع بين المختصين...

إن مناقشتنا هنا لا تكفي وحدها لفرض ضرورة تقييم شامل في مجال التقنيات الإسقاطية. إن استطعنا فقط، استنادا على المحاور التي انطلقنا منها هنا، أن ندخل قليلا من الإرتباك إلى الراحة التي يمكن أن نلتمسها عند الكثير من مستعملي التقنيات الإسقاطية، فهذا المقال يكون قد حقق الهدف الذي حرر من أجله....

قائمة المراجع

1. AIT SIDHOUM (M.A) - Le processus d'élaboration de la réponse au Rorschach, *Psychologie*, N°3, 1992, P. 113-131.
2. AIT SIDHOUM (M.A)- A propos du T.A.T. Mise en place de la conception de V. Shentoub, *Psychologie*, N°4, 1994.
3. AIT SIDHOUM (M.A)- Les techniques projectives thématiques, Problèmes actuels et perspectives d'avenir, *Recherche*, 1993, N°1.
4. AIT SIDHOUM (M.A) - Les techniques projectives thématiques: Réflexions critiques et proposition méthodologiques à partir de la clinique en Algérie, *Revue Algérienne de Psychologie et des sciences de l'éducation*, N°6, 1994.
5. BACKES THOMAS (M). *Le test des trois personnages*, Neuchatel, Delachaux et Niestlé, 1969.
6. FRANK (L.K)- Perspective Methods for the study of personality, *Journal of Psychology*, 1939.
7. FREUD (S). (1913) - *Totem et tabou*, Paris, Gallimard, 1948.
8. FREUD (S) - *L'interprétation des rêves*, Paris, PUF, 1967.
9. HOLT (R) - The nature of T.A.T. stories as a cognitive products, in Kagan et Lesser: *Contemporary issues in Apperceptive methods*, 1961, Charles Thomas publ.
10. MARTY (P), *Mouvements individuels de vie et de mort*, Paris, Payot, 1973.
11. RORSCHACH (H)- *Le psychodiagnostic*, Paris, PUF, 1976.

12. SAMI ALI. - *De la projection*, Paris, Payot, 1970.
13. SHENTOUB (V), RAUSH DE TRAUBENBERG (N).
Tests de projection de la personnalité, *E.M.C.*, 9 - 1982,
37190A10, P. 1-14.